تفسير ابن كثير

قال ابن جريج عن مجاهد هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول ا صلى ا عليه وسلّم ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنبينه إن شاء ا تعالى مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن ا وا مع الصابرين وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت يونس يحدث عن الزهري عن عبيد ا عن ابن عباس قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [خير الصحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة] وهكذا رواه أبو داود والترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب جدا لا يسنده أحد غير جرير بن حازم وإنما روي عن الزهري عن النبي صلى ا عليه وسلّم مرسلا وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره عن أكثم الجوني عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم بنحوه وا أعلم وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة .

وذلك لما فرغ صلى ا عليه وسلّم من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول ا صلى ا عليه وسلّم فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف بن النضر ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول ا صلى ا عليه وسلّم في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال ا D وثبت رسول ا صلى ا عليه وسلّم وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحو العدو والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه E ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول : [إلي عباد ا إلي

أنا رسول ا] ويقول في تلك الحال : [أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب] وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر Bهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم Bهم ثم أمر صلى ا عليه وسلّم عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب السمرة ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول ا صلى ا عليه وسلّم أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره وقال [اللهم أنجز لي ما وعدتني] ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما يشغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول ا صلى ا عليه وسلّم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا يعلى بن عطاء عن عبد ا بن يسار عن أبي همام عن أبي عبد الرحمن الفهري واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال : كنت مع رسول ا صلى ا عليه وسلّم في غزوة حنين فسرنا في يوم قائظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي فانطلقت إلى رسول ا A وهو في فسطاطه فقلت السلام عليك يا رسول ا ورحمة ا وبركاته حان الرواح ؟ فقال : [أجل] فقال : [يا بلال] فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر فقال : لبيك وسعديك وأنا فداؤك فقال [أسرج لي فرسي] فأخرج سرجا دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر قال فأسرج فركب وركبنا فصاففناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان فولى المسلمون مدبرين كمال قال ا تعالى : { ثم وليتم مدبرين } فقال رسول ا A [يا عباد ا أنا عبد ا ورسوله] ثم قال : [يا معشر المهاجرين أنا عبد ا ورسوله] قال ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفا من تراب فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم وقال : [شاهت الوجوه] فهزمهم ا تعالى قال يعلى بن عطاء : فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا : لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابا وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الجديد وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة به وقال محمد بن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد ا قال : فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول ا A إليه فأعدوا وتهيئوا في مضايق الوادي وأحنائه وأقبل رسول ا A وأصحابه حتى

انحط بهم الوادي في عماية الصبح فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز رسول ا A ذات اليمين يقول : [أيها الناس هلموا إلي أنا رسول ا أنا رسول ا أنا محمد بن عبد ا] فلا شيء وركبت الإبل بعضها بعضا فلما رأى رسول ا A أمر الناس قال : [يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة] فأجابوه لبيك لبيك فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول ا A منهم مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ثم جعلت آخرا بالخزرج وكانوا صبراء عند الحرب وأشرف رسول ا A في ركابه فنظر إلى مجتلد القوم فقال : [الان حمي الوطيس] قال : فوا ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول ا ملقون فقتل ا منهم من قتل وانهزم منهم ما انهزم وأفاء ا على رسوله أموالهم وأبناءهم .

وفي الصحيحين من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب Bهما أن رجلا قال له : يا أبا عمارة أفررتم عن رسول ا A يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول ا A لم يفر إن هوازن كانوا قوما رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس فلقد رأيت رسول ا A وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : [أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب] قلت : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب وهو مع هذا أيضا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات ا وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة با وتوكلا عليه وعلما منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان ولهذا قال تعالى : { ثم أنزل ا سكينته على رسوله } أي طمأنينته وثباته على رسوله { وعلى المؤمنين } أي الذين معه { وأنزل جنودا لم تروها } وهم الملائكة كما قال الإمام أبو جعفر ابن جرير حدثني الحسن بن عرفة قال حدثني المعتمر بن سليمان عن عوف هو ابن أبي جميلة الأعرابي قال سمعت عبد الرحمن مولى بن برثن حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول ا A يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة قال : فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول ا A قال : فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد ا الحافظ حدثني محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحارث بن حصيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال : قال ابن مسعود Bه :

كنت مع رسول ا A يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل ا عليهم السكينة قال : ورسول ا A على بغلته البيضاء يمضي قدما فحادت بغلته فمال عن السرج فقلت : ارتفع رفعك ا قال : [ناولني كفا من التراب] فناولته قال : فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم ترابا قال : [أين المهاجرون والأنصار ؟] قلت : هم هناك قال : [اهتف بهم] فهتفت بهم فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عفان به نحوه وقال الوليد بن مسلم : حدثني عبد ا بن المبارك عن أبي بكر الهذلي عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبة بن عثمان قال : لما رأيت رسول ا A يوم حنين قد عري ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما فقلت اليوم أدرك ثأري منه قال : فذهبت لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائما عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت : عمه ولن يخذله قال فجئته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت : ابن عمه ولن يخذله فجئته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت أن تمحشني فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى فالتفت رسول ا A وقال : [يا شيبة يا شيبة ادن مني اللهم أذهب عنه الشيطان] قال : فرفعت إليه بصري ولهو أحب إلي من سمعي وبصري فقال : [يا شيبة قاتل الكفار] رواه البيهقي من حديث الوليد فذكره .

ثم روي من حديث أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال : خرجت مع رسول ا A يوم حنين وا ما أخرجني إسلام ولا معرفة به ولكنني أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه : يا رسول ا إني أرى خيلا بلقا فقال : [يا شيبة إنه لا يراها إلا كافر] فضرب بيده على صدري ثم قال : [اللهم اهد شيبة] ثم ضربها الثانية ثم قال : [اللهم اهد شيبة] ثم ضربها الثالثة ثم قال : [اللهم اهد شيبة] قال : فوا ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق ا أحب إلي منه وذكر تمام الحديث في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول ا A حتى هزم ا تعالى المشركين قال محمد بن إسحاق : حدثني والدي إسحاق بن يسار عمن حدثه عن جبير بن مطعم Bه قال إنا لمع رسول ا A يوم حنين والناس يقتتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي فلم يكن إلا هزيمة القوم فما كنا نشك أنها الملائكة وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال : سمعت يزيد بن عامر السوائي وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم بعد فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى ا في قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن فيقول كنا نجد في أجوافنا مثل هذا وقد تقدم له شاهد من حديث يزيد بن أبي أسيد فا أعلم وفي صحيح مسلم

عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة أن رسول ا A قال : [نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم] ولهذا قال تعالى : { ثم أنزل ا سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين } وقوله : { ثم يتوب ا من بعد ذلك على من يشاء وا غفور رحيم } قد تاب ا على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة فرده عليهم وقسم الأموال بين الغانمين ونفل أناسا من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النصري واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها : .

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد .

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ومتى تشأ يخبرك عما في غد .

وإذا الكتيبة عردت أنيابها بالسمهري وضرب كل مهند .

فكأنه ليث على أشباله وسط المباءة خادر في مرصد